

أثر القوافل التجارية على صناعة الكتاب المخطوط بإقليم توات The impact of trade convoys on the manuscript book industry Touat Province

أ. كرزبكة علي

المركز الجامعي تامنغست/ الجزائر

alitazrouk@yahoo.fr

ملخص:

يعتبر توات مركزا تجاريا هاما خلال العصر الوسيط باعتبار موقعه المتميز والذي يعد الممر الطبيعي لتجار السودان الغربي ولبضائع بلدان المغرب بحيث أصبحت بحق حلقة وصل بين الشمال والجنوب والشرق والغرب عبر الصحراء الكبرى، واستغل أهل توات موقع إقليمهم الذي يتوسط أسواق الشمال والجنوب وفي الوقت الذي صارت فيه توات نقطة هامة للالتقاء والتجمع بين التجار من هنا وهناك، وانطلاق القوافل المحملة بالسلع المتنوعة، وابتعاث الحركة الثقافية والعلمية بالإقليم، انعكس ذلك إيجابا على تجارة الكتب ومنها مواد الكتابة وأدوات الكتابة. وبالتالي تطور صناعة الكتاب الإسلامي المخطوط بهذا الإقليم. **الكلمات المفتاحية:** القوافل التجارية؛ المخطوطات؛ صناعة المخطوط؛ أدوات الكتابة؛ مواد الكتابة؛ إقليم توات.

Abstract :

Touat is an important commercial center during the medieval era, as its location, which is a natural corridor for dealers in western Sudan and goods of the Maghreb countries to become truly a link between north and south and east and west across the Sahara, and exploited the people of the territory, which mediates Touat site of the markets of the north and the south, meanwhile, the Touat, an important point to meet and assemble between traders from here and there, and the launching of the convoys laden with miscellaneous goods, rebound, Scientific and Cultural Movement in the region, reflected positively on the trade books, including writing material and writing .

key words: Commercial caravans; Manuscripts; Writing tools; Writing materials; Touat County.

=====

مقدمة:

إن انتشار الدين الإسلامي في المغرب العربي كان حدثا بارزا في تاريخ هذا القطر الجغرافي الواسع، وتعد الثقافة الإسلامية مظهرا حضاريا في حياة الأمم والشعوب المختلفة، واستقرار الفاتحين في شمال إفريقيا واندماجهم مع السكان الأصليين من الأمازيغ، وبناء المدن الجديدة من القيروان والمهدية وفأس والمنصورة ومراكش وتلمسان وتمنيط التواتية....، واختلاف وظائف هذه الحواضر شرقا وغربا، ساهم في تشكيل قوافل تجارية تربط بينها، عبر مسالك مختلفة الاتجاهات، وكان لهذه القوافل دورا كبيرا في توطيد العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين مجتمعات هذه الحواضر. وعرفت المسالك التجارية ومن خلالها القوافل مراحل من الازدهار والانحطاط، على حسب الظروف السائدة وقتئذ. ولم يكن دور القوافل التجارية مقتصرًا على الثروات المادية بقدر ما كان يشمل نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم الدين الإسلامي، فاهتم المسلمون بالكتابة والنسخ، وكان لمنطقة توات حظ من ذلك التطور. فالتواتيون عرفوا الكتابة ومنها التأليف إلى أن أصبحوا متحكمين في صناعة الكتاب المخطوط وهذا بتوفر أدوات الكتابة ومواد الكتابة متأثرين بدور القوافل التجارية التي جعلت من هذا الإقليم همزة وصل بين الحواضر الشرقية والغربية آنذاك.

ومن هذا المنطلق جاءت إشكالية البحث كالآتي: ما هو الدور الذي كانت تلعبه القوافل التجارية في ازدهار الحركة العلمية والثقافية بإقليم توات؟ وإلى أي مدى تأثرت على صناعة الكتاب المخطوط بهذا الإقليم؟

قبل البدء بالحديث عن جغرافية توات وتاريخها، وعن آليات صناعة المخطوط في الإقليم التواتي كان لازما علينا التطرق إلى القافلة من الناحية اللغوية وكذا مراحل إعداد القافلة وتنظيمها، وما يعترض طريق القافلة من المشاكل .
القافلة الرفقة الكثيرة الراجعة من السفر أو المبتدئة به، يكون معها دوابها وأمتعتها وزادها. والجمع قوافل¹.

القفول معناه الرجوع من السفر، وقيل: القفول رجوع الجند بعد الغزو، قفل القوم يقفلون.الضم، قفولا وقفلا، ورجل قافل من قوم ففال، والقفل اسم للجمع.التهذيب: وهم

القفل بمنزلة البعد اسم يلزمهم. والقفل أيضا: القفول. تقول: جاءهم القفل والقفول، واشتق اسم القافلة من ذلك لأنهم يقفلون، وقد جاء القفل بمعنى القفول².

والقافلة من الناحية الوظيفية هي عبارة عن مجموعة من الناس يسافرون معا وغالبا ما يكون ذلك بغرض التجارة وقد استخدمت القوافل بشكل رئيسي في المناطق الصحراوية وفي طريق الحرير وذلك لوفرة حجم التجارة بالإضافة إلى أنها تساعد في التصدي لقطاع الطرق.

ومن منظور آخر القافلة هي مجموعة من الإبل محملة بالبضائع المتنوعة كالكتان والعطور والبهارات والملح والقمح والتمر... وقد تحمل بضاعة ثمينة كالذهب والأحجار الكريمة والكتب... وتكون القافلة محروسة من أفراد متخصصين لذلك الغرض مهمتهم حماية القافلة من قطاع الطرق.

والقافلة تعددت مهامها وأهدافها، فنجد فيها التاجر والمسافر والرحالة والمستكشف والعالم وطالب العلم... فهم كلهم يشتركون في قافلة واحدة تجمعهم. كل له حاجة في نفسه يقضيه من خلال هذه القافلة، وإذا تكلمنا عن القافلة من المنظور العام لقلنا القافلة التجارية إذا يسعى أصحابها إلى تبادل السلع المختلفة من الذهب والجلود وريش النعام هذا من الجانب الصحراوي، ومن جانب آخر تحمل القافلة الأقمشة والحلي والملح والأحجار الكريمة بالإضافة إلى الكتب المنسوخة ومواد الكتابة وأدواتها. (الجانب الشمالي). ولم تعرف التجارة نشاطها إلا بعد الفتح الإسلامي لإفريقية في القرن الأول الهجري حيث نشطت حركة القوافل منذ القرن الثاني الهجري، مستفيدة من الآبار التي حفرها الفاتح العربي عبد الله بن حبيب³.

1- نظام القافلة:

إن أهم نقطة ترتكز عليها التجارة الصحراوية قبل ظهور وسائل النقل الحديثة وكانت شريان استمرار هذه التجارة آنذاك، إنها القوافل التجارية ويحملون عليها سلعهم. قاطعين مسافات ومسالك وعرة من أجل البيع والشراء، ولسهولة تنقل هذه القوافل التجارية كانت تسير تحت نظام محكم يشمل وسيلة النقل (الجمل) والتاجر وحراس القافلة وأدلاء القافلة، و لنجاح هذه المهمة كان الجميع يستعد استعدادا كبيرا لهذه

المغامرة فكان التجار ومرافيقهم يجتمعون في مكان معين لاختيار الوقت المناسب للانطلاق الطريق التي يسلكونها وعدد الجمال الخاصة بالحمولة وكل معدات السفر من الزاد والخيم والماء والأسلحة والحراس لحمايتها⁴.

وحين يحل موعد انطلاق القافلة يكون لها مقدم يتحكم في انطلاقها ومسيرتها وفي حلها وترحالها، وهذا المقدم يُختار من بين التجار. وما يميز أعضاء القافلة من التجار أو المسافرين أنهم لا يتجهون نحو اتجاه واحد فكل ينزل بمحطة معينة، يبقى في ذلك المكان أو ينضم إلى قافلة أخرى، والحرص على مرافقة القافلة كان من أجل الشعور بالأمن واجتتاب قطاع الطرق والتهيب في بحار الرمال. وذكر ابن بطوطة كيفية استعداده للرحلة من سجلماسة إلى تمبكتو حيث اشترى جمال وقام بعلفها لمدة أربعة أشهر⁵.

وكانت القافلة في مسيرتها اليومية تبدأ رحلتها قبل الفجر وتستمر حتى طلوع الشمس واشتداد حرها، فتتوقف عن السير حتى العصر فيستأنفون المسير إلا أن يحل الظلام⁶.

إن المتأمل لنظام القوافل من ناحية التموين لوجد الاختلاف في هذا الشأن والسبب يرجع إلى التنوع في المسالك، فالقافلة المتجهة نحو الشمال لا يحمل تجارها كل مؤونتهم لأنه في معظم الأحيان بإمكانهم أن يشتروا ما يلزمهم من المراكز التجارية التي يمرّون بها. لكن الأمر يختلف بالنسبة للقوافل العابرة إلى بلاد السودان فهي تسير وفقا لنقاط توفر الماء وسهولة المنطقة ويحملون معهم المؤونة اللازمة وفي معظم الأحيان تكون أغذية مجففة لكيلا تتعرض للفساد⁷.

ويصل عدد الجمال في القوافل أحيانا إلى أعداداً كبيرة تصل إلى ألفي جمل، يحمل جزء منها البضائع وجزء آخر الماء والزاد، والباقي لا يحمل هذا ولا ذلك بل يستخدم للركوب وأغراض أخرى⁸.

وقد وصف العياشي توات في رحلته خلال القرن 17م أن أغلبية أهلها تجار لما يتوفرون عليه من أنواع التمور والإبل للسفر⁹.

2- المشاكل التي تعترض القافلة:

أكثر ما يعانيه المسافر في الطرق الصحراوية العطش والضياح وشدة الحر والرياح التي تسبب ردم الآبار، وحتى القافلة أحياناً، زيادة على الأخطار الطبيعية هناك أخطار قطاع الطرق ومن أشهرهم قبائل صنهاجة، فمثلاً قبيلة لمتونة سيطرت على الطريق الغربي فكانت تفرض الإتاوات وتغير على القوافل. ويرى أحمد شكري في ذلك أنه بعد ضعف التجارة وتعرض المنطقة للكوارث الطبيعية كان من الضروري الالتجاء للإغارة لأنها سلوك عدواني يمثل قاعدة اجتماعية ثابتة وسمة ملازمة للبدو الرحل في الصحراء¹⁰.

3- التعريف بمنطقة توات:

وردت الكثير من الآراء حول أصل تسمية توات وتعددت هذه الآراء بين المؤرخين من جهة واللغويين من جهة ثانية. وعلى هذا الأساس ظهرت مجموعة من الروايات نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، بعضها مما نقله المؤرخين واللغويين في تسمية التوات.

يرى عبد الرحمان السعدي أن أصل الكلمة تعني وجع الرجل في لغة قوم سلطان مالي "كنكان موسى"، عندما حج مر بتوات فأصاب كثير من أصحابه مرض يأتي في الأرجل يسمى توات، في لغة السنغالي، فسمي المكانة باسم ذلك الوجع¹¹. فبقوا هناك ولم يستطيعوا إكمال السفر مع ملكهم ومنذ ذلك الحين سمي المكان بذلك المرض.

ومن جهته يذكر أبو عبد الله محمد الأنصاري في مؤلفه «فهرست الرصاع»، حيث ذكر أن اسم توات هو لأحد البطون المنحدرة من قبائل الملمثمين إذ قال: "...والملمثمون هم قبائل الصحراء بالجنوب عرفوا بهذا الاسم لأنهم يتلثمون بلثام أزرق، ومنهم طوائف التوارق ولمته ولمتونه والتوات...."¹²

وأما محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنيطي يرى أن اسم توات جاء من اسم الأتوات التي كانت تقبض عن سكان المنطقة من طرف الموحدين خلال القرن السادس هجري، فعرف أهل هذا القطر بأهل الأتوات.¹³

ويقول مولاي الطاهر الإدريسي، أن توات سميت بهذا الاسم لأنها تواتي للعبادة، ولهذا سكنها الكثير من العلماء والأولياء والصالحين¹⁴.

من المعلوم أن منطقة توات كانت ملتقى تجمع واستقرار بشري، منذ فترة قديمة. وقد شكلت بحكم موقعها الجغرافي الإستراتيجي بين الواحات الجنوبية الصحراوية نقطة مركزية هامة تصل بين حواضر ومدن المغرب الإسلامي في الشمال والمراكز الحضارية الواقعة جنوب الصحراء المسماة بلاد السودان الغربي. ليتشكل المجتمع التواتي من البربر والعرب والمجموعات الوافدة من غرب إفريقيا، حتى أصبح يشكل جماعة واحدة في العادات والتقاليد نابعة من أصول إسلامية، فامتازوا بالضيافة والكرم والوجود كما ذكر العياشي في رحلته أن روح المؤاخاة والتعاطف تسود أفراد الجماعة وإكرامهم للغريب¹⁵، وقال عنهم جيرهارد رولف أنهم قوم مسالمون يحيون الغريب ويحترمون رجال الدين.

ويحدد الامتداد الجغرافي لمنطقة توات الكبرى من الشرق هضبة تادمايت ومن الشمال العرق الغربي الكبير ومن الغرب عرق شاش ومن الجنوب صحراء تنزروفت. وتتكون المنطقة تاريخيا من ثلاثة نواحي شاسعة جغرافيا، قورارة في الشمال، وتيدكلت إلى الجنوب، أما في الوسط فتقع توات الوسطى، ولقد عمم الجغرافيون والباحثون اسم توات على المناطق الثلاث.

4- الحياة العلمية والثقافية بإقليم توات:

كانت منطقة توات منذ تاريخها المبكر منارة علمية، في وسط هذه الصحراء الشاسعة، مما جعلها أن تكون حاضرة من حواضر العلم، فقد ساهمت في مد السودان الغربي بالثقافة والحضارة العربية الإسلامية، وكانت مدينة تمبكتو مقصدا للعلماء والفقهاء التواتيين منذ القرن الرابع الهجري¹⁶.

ورغم بعد الإقليم عن مراكز العمران والحضارة والثقافة في المغرب والمشرق الإسلامي إلا أن هذا لم يكن عقبة أمام أهل توات للاطلاع والمشاركة في الحياة الثقافية والفكرية التي كان يعيشها العالم الإسلامي عامة والعربي خاصة¹⁷.

وقد كانت توات منذ القديم منبراً للعلم، فقد لعبت دوراً كبيراً في إثراء الحضارة الإسلامية، فقد كانت مدينة تمبكتو مقصداً للعلماء والفقهاء التواتيين منذ القرن الرابع الهجري وأصبحت توات بداية من القرن الخامس عشر الميلادي منطلقاً لرجال الدين المسلمين نحو السودان الغربي، وكان لهم اطلاع على الحياة الفكرية والثقافية التي يعيشها العالم الإسلامي، فرحلوا إلى تلمسان وتونس وطرابلس والمشرق والحجاز طلباً للعلم، وتولوا التدريس والإفتاء والقضاء.

5- عوامل النشاط الثقافي والفكري بمنطقة توات تعود إلى:

- بعد المنطقة عن مراكز الصراع السياسي، وتميزها بالهدوء مما أتاح المجال للنشاط العلمي، وجعل الإقليم مركز جذب للعلماء الفارين من مناطق الصراع السياسي.
 - الموقع الاستراتيجي الذي تقف فيه شامخة متوسطة كبريات العواصم الثقافية آنذاك، إضافة إلى نشاطها الاقتصادي الداخلي المميز.
 - انتشار الزوايا العديدة في سائر المناطق الصحراوية، والتي جمع شيوخها بين العلم والعمل فساهموا في تبسيط المعارف العلمية، وتنافست الزوايا في استقطاب الطلبة، وهو ما كان له الأثر الإيجابي في نشر العلم النافع والجاد.
 - مساهمة سكان المنطقة خاصة الميسوري الحال منهم بدعم الطلبة والمدرسين بالأوقاف والهبات وبسط النفقات.
 - انتشار حركة التأليف بتوات. في مختلف المعارف.
- ومن العلوم التي اشتهت اهتمام التواتيون عليها نذكر:
- العلوم الشرعية: من الفقه المالكي وأصول الفقه والتفسير. وغيرها من العلوم الشرعية.
 - اللغة والأدب: باعتبار اللغة مفتاح العلوم أولى التواتيون للغة العربية جل اهتمامهم، لان من خلالها تفهم العلوم الشرعية والقرآن الكريم.
 - التاريخ والتراجم: اهتم التواتيون بتدوين تاريخ بلادهم وترجموا لأعلامها، فكانت الخزائن عامرة بالمخطوطات النفيسة، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر أهم التأليف

في هذا المجال كالقول البسيط في أخبار تمنطيط لمحمد الطيب بن الحاج عبد الرحيم المشهور بابن بابا حيدة، نقل الرواة عن أبداع قصور توات لمحمد بن المبروك البوداوي¹⁸.

6- المسالك الصحراوية للقوافل التجارية:

إن الصحراء الكبرى رغم صعوبة تضاريسها وكثافة رمالها ومناخها الحار والجاف، لم تكن هذه العوامل حاجزا أمام القوافل التجارية التي تجاوزتها ووصلت إلى أقصاها عبر مسالك ودروب عديدة، متشعبة وصعبة تربط بين الحواضر الشمالية والغربية لإفريقيا، وأثمر عن هذه الطرق مدن ومحطات وأسواق لعبت دورا كبيرا في تمويل التجارة الصحراوية وقتئذ، وقسم المؤرخون هذه المسالك إلى ثلاث: غربية وشرقية ووسطى. وقد سهلت هذه الطرق على القوافل التجارية عملية الاتصال والتبادل التجاري وأحكمت الربط بين صحاري شمال إفريقيا، وبلاد السودان الغربي¹⁹.

ومن هذه الطرق طريق مراكش إلى تنبوكتو، وطريق سجماسة إلى أودغست، وطريق تلمسان إلى توات وتنبوكتو، وطريق توات إلى تنبوكتو، وطريق ورجلان إلى تنبوكتو، وطريق واحة الجريد إلى غدامس، وطريق واحة سيرة ببلاد السودان²⁰.

توفرت توات على شبكة من الطرق التي ربطتها بباقي المناطق ومن مختلف الجهات بحيث أنها كانت تتوسط تقريبا أربعة مدن برزت في التجارة الصحراوية وهي:

- غدامس شرقا وتبلغ المسافة بينها وبين توات 27 يوما تقريبا.

- تمبوكتو جنوبا وتبلغ المسافة بينه وبين توات 29 يوما من اقبلي.

- فأس غربا بينها وبين توات 32 يوما.

- مدينة الجزائر شمالا بينها وبين توات 30 يوما²¹.

6- القوافل التجارية وتأثيرها على صناعة الكتاب المخطوط بإقليم توات:

إن المتأمل لهذا العنوان يعتقد إننا نسعى إلى دراسة دور وتأثير القوافل التجارية على تجارة الكتاب المخطوط، وإنما نسعى للإشارة إلى تأثير القوافل التجارية في تطور صناعة الكتاب المخطوط التواتي في مرحلة تاريخية هامة.

والحديث عن صناعة الكتاب المخطوط يجرنا إلى الحديث عن مصادر أدوات الكتابة ومواد الكتابة المستعملة آنذاك عند التواتيين، باعتبار هذا الإقليم حاضرة من حواضر شمال إفريقيا، وبالإضافة إلى النشاط التجاري الذي عرفته هذه المنطقة مع الحواضر المجاورة والبعيدة، ازدهرت معه الحركة الفكرية والعلمية، والتي ذكرنا أسبابها سابقاً، وقد اتسعت رقعة انتشار هذه الحركة في الفترة الممتدة من القرن الثامن الهجري إلى القرن العاشر الهجري. الرابع عشر ميلادي إلى القرن السادس عشر الميلادي. حيث تأسست المساجد والمدارس، التي استقطبت العلماء ومئات آلاف الطلبة وامتلات الخزائن بالكتب وكثر التأليف والرسائل في شتى العلوم، وبصفة خاصة العلوم الدينية، وانتشرت في هذه الفترة الزوايا والتي كانت تزخر بالمخطوطات منها ما دخل عن طريق القوافل التجارية، وقد ذكر العياشي خلال رحلته أنه لما نزل بإحدى قرى توات (والا)، عثر في إحدى زواياها على سفر من نوازل البرزلي²².

شهدت العلاقات التجارية بين حواضر المغرب الأوسط وبلاد السودان ازديادا ابتداء من القرن الثامن الهجري، وكانت منطقة توات ضمن هذا الحراك، بحيث أصبحت ممرا لقوافل التجار وهذا عامل من عوامل التي جعلت من توات تؤسس روابط ثقافية بين حواضر المغرب الأوسط وبلاد السودان.

نتج عن هذه العلاقات رواج الكتب والمخطوطات التي انتقلت من الحواضر العلمية إلى توات، وقد بلغ من الإفراط عليها، أن أصبحت من السلع الرائجة لأنها كانت عمدة الطلاب هناك، حتى أصبحت في المرتبة الثانية بعد تجارة الذهب²³.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلبية المدن والقصور التواتية قد نشأت أصلا عن القوافل التجارية العابرة للصحراء قاصدة الأسواق الرئيسية لذلك تحتم على أصحاب هذه القوافل التعامل مع أسواق هذه المدن والقصور للحصول على احتياجاتهم ولأخذ قسط من الراحة لمواصلة سفرهم الطويل²⁴.

ولقد كانت قوافل الحجيج العابرة للصحراء في طريقها إلى الأراضي الحجازية تتطلق من مدن سجلماسة وتافيالنت وشنقيط كل عام وتسلق أثناء سيرها نحو الشرق

الطريق المار داخل إقليم توات²⁵. ولعبت هذه القوافل دورا بارزا في بيع الكتب ومستلزمات الكتابة كالورق وبعض من أنواع الحبر.

ولقد ابتدع الإنسان وسائل مساعدة سهلت عليه سرعة تعلم الكتابة والقراءة، وهذه الوسائل هي مواد الكتابة وأدواتها، ويقصد بمواد الكتابة تلك المواد التي دون فيها الإنسان كتاباته من الورق والرق والبردي، أما أدوات الكتابة فيقصد بها المواد التي يكتب بها من الأقلام والمحابر والأحبار والأمددة، وأدوات وآلات أخرى يستعملها الكتاب والنساخ قبل البدء في تدوين ما يرغبون في تدوينه.

وقد حدد بعض علماء المخطوطات²⁶ أربعة أركان لصناعة المخطوط وهي:

- الورق (الكاغد) - الحبر (المداد) - الخط - التجليد (التفسير)²⁷.

ويمكن تقسيم مقومات صناعة الكتاب المخطوط إلى: مواد الكتابة وأدوات الكتابة والجانب الفني الزخرفة والتذهيب.

أ- المواد التي يكتب عليها:

إن انتشار أماكن صناعة الورق عبر أقطار مختلفة من العالم الإسلامي، ولم تعد منحصره في خراسان وسمرقند، خاصة بعد أن ظهرت مهنة الوراقة، مما ساعد على زيادة انتشار الورق، والذي كان سببا في تقدم وازدهار المخطوط العربي عامة والتواتي خاصة.

انتقلت صناعة الورق من المشرق إلى المغرب، وعرفت مناطق كثيرة بصناعته منها مراكش وصقلية والأندلس ومن هنا انتقلت إلى إيطاليا، إذ يقول ياقوت الحموي "ويعمل الكاغد الجيد فيها ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس"²⁸. وكان الورق الإيطالي من أجود الأنواع آنذاك. وباعتبار الورق مقوم من مقومات صناعة المخطوط جعل التواتيين يحتكون بالقوافل التجارية المحملة للورق. وخاصة القادمة من سجلماسة وطرابلس.

وعن صناعة الورق بهذا الإقليم لم تذكر المصادر ذلك، اللهم إلا بعض النماذج التي اطلعنا عليها من مخطوطات كتبت على الرق مثل ما هو الحال للمخطوط الذي يتناول مواضيع في الفقه، وهو محفوظ بخزانة سيدي البكري بتمنيط. وهذا النوع من

المخطوطات على حسب بعض الباحثين توجد منه عينات في أكثر من خزانة .و السؤال المطروح هل عرف إقليم توات صناعة الرق²⁹. أم هو مستورد من أماكن أخرى، لان الرق من الصعب تحديد أماكن صناعته، وهو ليس كالورق. يمكن معرفة مكان صناعته، بينما الرق يصنع في أي مكان إذا توفرت شروط ذلك. و الرق سبق الورق في صناعة الكتاب المخطوط باعتباره المادة الأولية التي كان سكان المغرب الإسلامي يعتمدون عليه في التدوين وكون إقليم توات مرتبط في الكثير من النواحي الفكرية بالحواضر المجاورة، فيمكن أن نقول ان النماذج التي وجدناها في بعض المكتبات دليل على استعمال الرق للكتابة قبل الورق، لان هذا الأخير كان مستعملا إلى القرن الثامن الهجري.

ب- لون المواد المكتوب عليها:

بعد أن تعرفنا على المواد التي يكتب عليها كان لازما علينا من خلال هذه الدراسة المادية والتاريخية لصناعة الكتاب المخطوط بإقليم توات، أن نتطرق إلى موضوع لون المواد المكتوب عليها. لقد كان اللون الأبيض والأصفر هما اللونان الغالبان في الاستعمال، فالتواتيون ليس لهم الخيار في تحديد لون موحد للمادة المكتوب عليها، على غرار الحواضر الأخرى، فهم يكتبون على الورق المتوفر لعدم وجود مصانع للورق في هذا الإقليم. واستعمال الألوان الأخرى دليل على العناية بالجانب الصحي لان النظر في البياض يسبب بالضرر للبصر.

ج- الأدوات التي يكتب بها:

ومن المواد التي كانت تحملها القوافل مواد صناعة المداد (الحبر) ويعد ثاني ركن من أركان صناعة المخطوط، ومن أهم عناصره. فأما المداد فسمي بذلك لأنه يمد القلم أي يعينه وكل شيء مددت به شيئا فهو مداد³⁰. وورد لفظ المداد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ الآية 109 سورة الكهف.

أما الحبر فيراد به اللون، ومن ذلك يقول القلقشندي: "الحبر أصله اللون، يقال فلان ناصع الحبر، يراد به اللون الخالص الصافي من كل شيء، والحبر الأثر يبقى في الجلد"³¹.

مازال يشوب معرفة بداية صناعة المداد غموض كثيف، فليست لدينا أدلة محددة على بداية صنعه، و المواد التي استعملها الإنسان في تركيبه، بيد أن هناك اتفاقاً على أن العصر الأول للكتابة هو عصر الكتابة المصورة التي ظهرت أول ما ظهرت على أدوات الاستعمال اليومي عند البشر، وعلى جدران كهوف المراحل المتوسطة والمتأخرة من العصر الحجري القديم³².

فقد استعمل الإنسان المواد الطبيعية الملونة منذ زمن بعيد في رسم ما كان في بيئته من حيوانات، أو أدوات صيد وغير ذلك مما نراه في الرسوم والنقوش التي تُكتشف تباعاً في الكهوف والمغائر³³.

لقد كانت صناعة الأمدّة من الصناعات التي عرفها التواتيون، ويتبين لنا ذلك من خلال ما أوردوه عن الخصائص التي يجب أن تتوفر في أدوات الكتابة عامة، حيث أشاروا ضمن ذلك إلى ضرورة صناعة أمدّة جيدة، و يبرز لنا اهتمام التواتيين بصناعة الأمدّة ومعرفتهم بها وإجادتهم لها من خلال كتاب "التقييد المجموع لمن هو في هذا الفن مولوع" لصاحبه عبد الله يوسف بن عبد الحفيظ التلاني. هذا الكتاب منسوخ من قبل الشيخ الطيب شاري وهو محفوظ بخزانة الشيخ سيدي عبد الله البلبالي بكوسام. وعموماً فقد عرفت صناعة الأمدّة ازدهارا كبيرا في توات، ويتبين لنا ذلك في استعمال التواتيين لأنواع من الأمدّة الملونة والسوداء.

والحديث عن صناعة الأمدّة عند التواتيين ومعرفتهم بها نعتمد في ذلك على ما قدمه لنا عبد الله يوسف بن عبد الحفيظ التلاني، في كتابه **التقييد المجموع لمن هو في هذا الفن مولوع**. حيث وصف كيفية صناعتها وبين خصائص المواد المركبة لها. وإذا أردنا دراسة مكونات صناعة هذه الأمدّة نستنتج أن بعض المواد كانت تستورد خارج إقليم توات لعدم توفرها هناك وهي مما تحمله القوافل التجارية كالعفص، والزنج وعشبة الفوة، وحجر لازورد، ونبتة الزعفران، و العلك الصحراوي.

د- الأقالام:

لقد اهتم التواتيون بالصفات التي يجب أن تتوفر في الأقالام حتى تؤدي دورها بجودة وإتقان، مما يؤكد لنا أن التواتيين مطلعين على كل ما يلزم هذه الأداة الكتابية من خصائص تؤهلها لأداء دورها الكتابي على الوجه الأكمل، بل أنهم حددوا بدقة كيفية اختيار مادة صناعة الأقالام حيث رأوا بان يتخير من أنابيب القصب، وركزوا على تحديد حجم الأقالام من حيث الطول والقصر والدقة والغلظ. والملفت للانتباه في الأقالام المستعملة بتوات تلك الأقالام المصنوعة من المعدن والتي كانت تجلب من خارج الإقليم .

وعن طريق القوافل التجارية العابرة لإقليم توات، نرى ان تنقل العلماء ورحيلهم الى توات مع القوافل التجارية، جعل أهل العلم من العلماء والطلبة يحرصون على تعلم الخط العربي بمختلف أنواعه المنتشرة آنذاك، وإذا نظرنا إلى أنواع الخط المستعملة للكتابة في المخطوطات التواتية لوجدنا الخط الكوفي ومنه الخط المغربي المبسوط والمجوهر، وكذا خط الثلث والخط السوداني.

وهذا التنوع جعل من الكتاب المخطوط في إقليم توات يستقل بذاته. باعتبار الخط من أبرز الفنون التي شكلت الإبداع الفني، فهو الفن الجميل الذي توج الحضارة الإسلامية. أما عن الخطوط التي توزعت في شمال إفريقيا وتأثر بها التواتيون عن طريق القوافل التجارية هي:

- الخط التونسي: يشبه خط المشاركة في حروفه.
- الخط الجزائري: تصعب قراءته وكما يمتاز بجدة حروفه.
- الخط الفاسي: تأثر بالخط الأندلسي يمتاز باستدارة حروفه.
- الخط السوداني: يمتاز بغلظة الأحرف.

ومن مقومات صناعة المخطوطات صناعة التجليد أو كما نقول في المغرب التسفير، تعد من الفنون التي تقدمت بفضل الحرص على صيانة المخطوطات والحفاظ عليها، والتنوع في التجليد بتوات دليل على الاحتكاك والتأثر بأشكال التجليد القادم من

خارج إقليم توات. وهذه الصناعة أسهمت في تطور إخراج الكتاب إذ تقوم أساسا على حفظ المخطوطات ومتونه الداخلية بالصورة السليمة.

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة نستنتج ما يلي:

- 01- معرفة التطور الاقتصادي والتجاري لمنطقة توات الذي أدى إلى ازدهار الإقليم وانتعاشه علميا وفكريا.
- 02- مساهمة التجار عن طريق القوافل التجارية في صناعة الكتاب المخطوط وقد يعتقد الكثير أن دورها يتمثل في نقل البضائع الثمينة والسلع المختلفة.
- 03- معرفة دور علم المخطوط في البحث عن الأصول الأولى لمواد وأدوات صناعة المخطوطات.
- 04- من خلال علم المخطوط نكتشف أسرار تطور صناعة الكتاب المخطوط بتوات والذي تبقى العناية به محتشمة من قبل الباحثين .
- 05- الاهتمام بالجانب المادي للمخطوط أحد سبل المحافظة عليه.
- 06- تشكيل بوابة تساهم في إضاءة تاريخ مسكوت عنه تكمن في معرفة مادية المخطوطات.

وهذا العمل ما هو إلا محاولة لإمطة اللثام حول جانب مهم في دراسة الكتاب المخطوط، والذي لتساهم في نفض الغبار عن هذه الكنوز المتواجدة في أكثر من موقع في وطننا الحبيب.

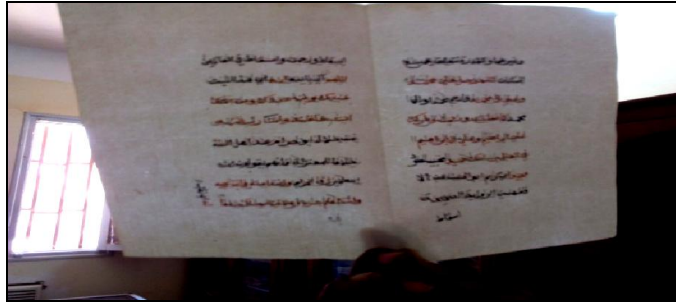
الملاحق



مخطوط من رق الغزال بالخزانة البكرية بتمنيط



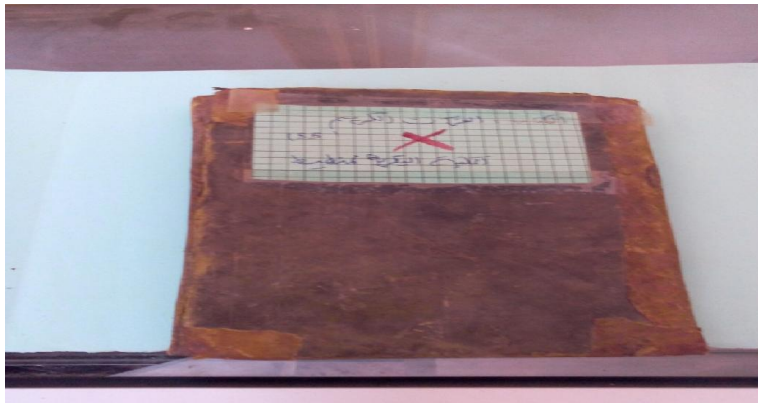
زخارف مذهبة على مخطوط من الرق في الخزانة البكرية بتمنيط



مخطوط مكتوب على ورق مستورد من اسبانيا موجود بالخزانة البركية بتمنيط



الصفحة الأولى لمخطوط كتاب المؤطا محفوظ بالخزانة البركية بتمنيط مزخرفة بزخارف نباتية



مصحف مجلد الخزانة البركية

هوامش:

- 1- ابن منظور، لسان العرب. مادة "ق ف ل" دار صادر بيروت. 1414هـ.
- 2- ابن منظور، المصدر السابق.
- 3- خليل النحوي، بلاد شنقيط، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، تونس، 1987، ص34.
- 4- عبد الكريم يوسف جودت، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرن الثالث والرابع الهجريين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص212.
- 5- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980، مج4، ص239.
- 6- عبد الكريم جودت يوسف، المرجع السابق، ص258.
- 7- عبد الكريم جودت يوسف، المرجع السابق، ص212.
- 8- الهادي المبروك الدالي، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من القرن 15 إلى 18، الدار المصرية اللبنانية، مصر، 1999، ص76.
- 9- العياشي، الرحلة العياشية، تحقيق سعد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية، ج1، ص79-80.
- 10- أحمد شكري، الإسلام والمجتمع السوداني (إمبراطورية مالي) 1230هـ، 1430م، المجمع الثقافي أبو ظبي، 1999، ص97-98.
- 11- عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، طبعة هوداس، باريس، 1964، ص07.
- 12- أبو عبد الله محمد الأنصاري، فهرست الرصاع، تحقيق محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1976، ص127.

- 13- محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيبي، درة الأقاليم في أخبار المغرب بعد السلام، نسخة المخطوط بخزانة كوسام، ص 09.
- 14- الطاهري الإدريسي مولاي أحمد، نسيم النفحات في ذكر جوانب من أخبار توات، تحقيق وتعليق مولاي عبدالله الطاهري، سالي، الجزائر، ص 57.
- 15- العياشي، الرحلة العياشية، ج2، ص 50.
- 16- أحمد حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا، ج1، القاهرة 1963، ص 236.
- 17- فرج محمود فرح، إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 15.
- 18- بن عبد الله نور الدين، العمارة التقليدية، لمنطقتي توات الوسطى والقورارة بين ضوابط النص الديني وحدود الواقع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2013، ص01، ص 65.
- 19- بلعربي خالد، العلاقات التجارية بين الدولة الرستمية والسودان الغربي، مجلة كان التاريخية، العدد 09، ص 63.
- 20- رضا جواد الهاشمي، تجارة القوافل في التاريخ العربي القديم، القاهرة، 1984، ص 12.
- 21- جعفري مبارك صافي، من تاريخ توات أبحاث في التراث، ط2، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 2009، ص 110.
- 22- بخدة طاهر، علاقة حواضر المغرب الأوسط "الجزائر بممالك السودان الغربي"، مجلة الثقافة الإسلامية، العدد 2014، ص 12، ص 38.
- 23- أنظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، مج 2، ص 176.
- 24- فرج محمود فرح، المرجع السابق، ص 25.
- 25- عباس عبد الله، الدور الحضاري لإقليم توات، الملتقى الوطني الأول حول العلاقات الحضارية بين توات والمغرب الإسلامي، أدرار، 2009، ص 236.
- 26- علماء المخطوطات هم الذين يدرسون المخطوط كوثيقة مادية من خلال علم المخطوط أو الكوديكولوجيا وهو علم دراسة الكتاب المخطوط وصناعته، بما في ذلك صناعة الأحبار، وفن التوريق أو النساخة، و التجليد، والتذهيب، وصناعة الرقوق، والجلود، والكاغد، وما يتبع كل ذلك من فنون وما يتصل بها مثل: حجم الكراسة، ونظام الترقيم، والتعقيبات، والسماعات، والقراءات والإجازات، والمقابلات، وتقييدات التملك، وتقييدات الوقف، وما يظهر في نهاية

- المخطوط...أنظر:علم الاكتناه، لدكتور قاسم السامرائي،و كتاب من أجل دراسة حفرية للمخطوط العربي،لمصطفى الطوي،ص19- 17.
- ²⁷ - أيمن فؤاد سيد،**الكتاب العربي الخطوط وعلم المخطوطات**، ج1،ص 172.
- ²⁸- ياقوت الحموي،**معجم البلدان**،ج3،ص 235.
- ²⁹- **الرق**: المادة الأولية لصناعة الرق،من أصل حيواني من الجلود التي كانت تستخدم في صناعة الرق هي جلود الخراف والماعز والبقر وتبعاً لتقليد متجذر نجد جلد الغزال.وكان جلد الخراف هو الأكثر استخداماً في هذا الغرض،وكان الرق يصنع عن طريق نزع الشعر من جذوره وإزالة النجاسات الموجودة عليه باستعمال الجير أو أية مادة حفظ أخرى ويترك ليجف مع شدة على إطار خشبي، وعملية الشد هذه هي عملية الدباغة التي تفرق بين الرق والجلد .وفي كثير من الرقوق التي وصلت إلينا يمكننا التفريق بين اللحم وناحية الشعر بسبب بقاء جذور شعر الحيوان، وكانت الكتابة تتم عادة على الوجه الأملس.أما حجم الرق فكان يختلف باختلاف طول الحيوان المستمد منه.أنظر: أيمن فؤاد سيد،**الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوط**،ج1،الدار المصرية اللبنانية،القاهرة،1997،ص ص 18- 19.وفرنسوا ديروش،**المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي**،تر،أيمن فؤاد سيد،مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي،لندن،2005،ص81.
- ²⁹ - القلقشندي، المصدر السابق،مج 2، ص 189.
- ³⁰ - القلقشندي، **صبح الأعشى**،ج2،ص 471.
- ³¹ - القلقشندي، **المصدر السابق**،ص 472.
- ³² - هاري المر بارتز،**تاريخ الكتابة التاريخية**، تر،محمد عبد الرحمن برج، الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،1984،ص 26.
- ³³ - فرانسيس روجرز، **قصة الطباعة والكتابة من الصخرة المنقوشة حتى الصفحة المكتوبة**،ص 18-9 .